الجزء التاسع والعشرون

سورة الملك

هى مكية ، وآيها ثلاثون ، نزلت بعد سورة الطور.

ومناسبتها لما قبلها — أنه لما ضرب مثلا للكفار بتينك المرأتين اللتين قدر لهما الشقاء وإن كانتا تحت عبدين صالحين ، ومثلا للمؤمنين بآسية ومريم وقد كتب لهما السعادة وإن كان أكثر قومهما كفارا — افتتح هذه السورة بما يدل على إحاطة علمه عز وجل وقهره وتصرفه فى ملكه على ماسبق به قضاؤه .

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَاتَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ

يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥) .

شرح المفردات

البركة : الزيادة حسية كانت أو عقلية ، خلق : أى قدّر ، ليبلوكم : أى ليختبركم والمراد ليعاملكم معاملة المختبر لأعمالكم ، أحسن عملا : أى أخلصه لله ، العزيز : أى الغالب الذى لايعجزه عقاب من أساء ، الغفور : أى كثير المغفرة والستر لذنوب عباده ، طباقا : أى طبقة بعد طبقة ، تفاوت : أى اختلاف وعدم تناسب ، والفطور : الشقوق ، واحدها فَطْر ، يقال فطره فانفطر ، كرتين : أى رجعتين أخريين فى ارتياد الخلل ، والمراد بذلك التكرير والتكثير : أى رجعة بعد رجعة ، ينقلب : أى يرجع ، خاسئا : أى صاغرا ذليلا مبعدا لم ير مايهوى من الخلل ، حسير : أى كليل منقطع لم يدرك ماطلب ، والحاسر : المُعْيَا لنفاد قواه ، والمصابيح : واحدها مصباح وهو السراج ؛ والمراد بها الكواكب ، والرجوم : واحدها رجم (بالفتح) وهو مايرجم ويرمى به ، والشياطين : هم شياطين الإنس والجن ، وأعتدنا : أى هيأنا ، عذاب السعير : أى عذاب النار المسعَّرة الموقدة .

المعنى الجملى

مجّد الله نفسه وأخبر أن بيده الملك والتصرف فى جميع المخلوقات بما يشاء لامعقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل ، لقهره وحكمته وعدله ، وهو القدير على كل شىء ؛ ثم أخبر بأنه قدّر الموت والحياة ليبلوكم فينظر من منكم أخلص له عملا ، وهو ذو العزة الغالب على أمره ، الغفور لمن أذنب ثم تاب وأقلع عنه ، ثم أردف ذلك بأنه خلق سبع سموات بعضها فوق بعض لاخلل فيها ولا عيب ، فانظر أيها الرائى أترى فيها

شقا أو عيبا ؟ ثم أعِدِ النظر وحدّق بالبصر، لتستيقن تمام تناسبها واستواء خلقها ، وقد زيّنا أقرب السموات إليكم بكواكب يهتدى بها السارى، ويعلم بها عدد السنين والحساب ، وعليها تتوقف حياة الحيوان والنبات ، وهى أيضا سبب الأرزاق المهيجة لشهوات شياطين الإنس والجن ، وهؤلاء قد استمدوا شيطنتهم من مظاهر الطبيعة بوساطة الحرارة والضوء من الكواكب ، وبذا أعد لهم عذاب السعير جزاء ما اقترفوا فى حياتهم الدنيا .

الإيضاح

(تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير) أى تعالى ربنا الذى بيده ملك الدنيا والآخرة ، فهو يعز من يشاء ويذل من يشاء ، ويرفع أقواما ويخفض آخرين ، وهو على مايشاء فعله ذو قدرة لايمنعه مانع ، ولا يحول بينه وبين مايريد عجز ، فله التصرف التام فى الموجودات على مقتضى إرادته ومشيئته بلا منازع ولا مدافع .

والخلاصة — تعاظم عن صفات المخلوقين من بيده الملك والتصرف فى كل شىء ، وهو قدير يتصرف فى ملكه كيف يريد من إنعام وانتقام ، ورفع ووضع ، وإعطاء ومنع .

ثم شرع يفصل بعض أحكام الملك وآثار القدرة ، ويبين ابتناءها على الحكم والمصالح ، وأنهما يستتبعان غايات جليلة فقال :

(الذى خلق الموت والحياة) أى الذى قدر الموت وقدر الحياة وجعل لكل منهما مواقيت لا يعلمها إلا هو .

(ليبلوكم أيكم أحسن عملا) أى ليعاملكم معاملة من يُختبر حاله ، وينظر أيكم أخلص فى عمله ، فيجازيكم بذلك بحسب تفاوت مراتبكم وأعمالكم ، سواء أكانت أعمال القلب أم كانت أعمال الجوارح .

وقد روى فى تفسير الآية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أيكم أحسن عقلا ، وأورع عن محارم الله ، وأسرع فى طاعته عز وجل » يعنى أيكم أتم فهماً لما يصدر عن حضرة القدس ، وأكمل ضبطا لما يؤخذ من خطابه ، وأيكم أبعد عن ملابسة الكبائر ، وأسرع فى إجابة داعى الله .

وفيه ترغيب فى الطاعات وزجر عن المعاصى كما لايخفى على ذوى الألباب .

(وهو العزيز الغفور) أى وهو القوى الشديد الانتقام ممن عصاه وخالف أمره، الغفور لذنوب من أناب إليه وأقلع عنها .

وقد قرن سبحانه الترهيب بالترغيب فى مواضع كثيرة من كتابه كقوله تعالى : « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

و إثبات العزة والغفران له يتضمن كونه قادرا على كل المقدورات ، عالما بكل المعلومات ، ليجازى المحسن والمسىء بالثواب والعقاب ، ويعلم المطيع من العاصى ، فلا يقع خطأ فى إيصال الحق إلى من يستحقه ، ثوابا كان أو عقابا .

ثم ذكر دلائل قدرته فقال :

(الذى خلق سبع سموات طباقا) أى هو الذى أوجد سبع سموات بعضها فوق بعض فى جوّ الهواء بلا عماد ، ولا رابط يربطها مع اختصاص كل منها بحيز معين ونظم ثابتة لاتتغير ؛ بل بنظام الجاذبية البديع بين أجرام الأرضين والسموات ، كما جاء فى قوله : « اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى » .

ثم ذكر دلائل العلم فقال :

(ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور) أى لاترى أيها الرائى تفاوتا وعدم تناسب ، فلا يتجاوز شىء منه الحد الذى يجب له زيادة أو نقصا على نحو ماقيل :

تناسبت الأعضاء فيه فلا ترى بهنّ اختلافا بل أتين على قَدْر

فإن كنت فى ريب من هذا فارجع البصر حتى تتضح لك الحال ، ولا يبقى لك شبهة فى تحقق ذلك التناسب والسلامة من الاختلاف والشقوق بينها .

وإنما قال : (فى خلق الرحمن من تفاوت) دون أن يقول : (فيها) تعظيما لخلقهنّ ، وتنبيها إلى سبب سلامتهنّ من التفاوت بأنهنّ من خلق الرحمن ، وأنه خلقهنّ بباهر قدرته وواسع رحمته تفضلا منه وإحسانا ، وأن هـذه الرحمة عامة فى هذه العوالم جميعا .

ثم أمره بتكرير البصر فى خلق الرحمن على سبيل التصفح والتتبع ، هل يجد فيه عيبا وخللا فقال :

(ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير) أى إنك إذا كررت النظر لم يرجع إليك البصر بما طلبته من وجود الخلل والعيب ، بل يرجع إليك صاغرا ذليلا لم ير مايهوى منهما ، حتى كأنه طرد وهو كليل من طول المعاودة وكثرة المراجعة .

والمراد بقوله « كرتين » التكثير كقوله :

لو عُدَّ قبر وقبر كان أكرمهم بيتاً وأبعدهم من منزل الذَّام

وبعد أن بين خلوّ السموات من العيب ذكر أنها الغاية فى الحسن والبهاء فقال :

(ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) أى ولقد زينا السماء القربى من الأرض وهى التى يراها الناس بكواكب مضيئة بالليل كما يزيّن الناس منازلهم ومساجدهم بالسُّرُج ، ولـكن أنّى لسرج الدنيا أن تكون كسرج الله ؟

والخلاصة — أن نظام السموات لاخلل فيه ، بل هو أعظم من ذلك ، فقد زينت سماؤه القريبة منا بمصابيح ، هى بهجة للناظرين ، وعبرة للمعتبرين .

(وجعلناها رجوما للشياطين) أى وهذه الكواكب لا تقف عند حد الزينة بل بضوئها يكون ما فى الأرض : من رزق وحياة وموت ، بحسب الناموس الذى سنناه ، والقدر الذى أمضيناه ، ويكون فى العالم الإنسانى وعالم الجن نفوس تتقاذفها الأهواء ، وتتجاذبها اللذات والشهوات التى تنجم من العناصر المتفاعلة بسبب الأضواء المشعّة النازلة من عالم الكواكب المشرقة فى السماء .

وقصارى القول ـ إن هذه الكواكب كما هى زينة الدنيا ، وأسباب لرزق ذوى الصلاح من الأنبياء والعلماء والحكماء ، هى أيضا سبب لتكوّن الأرزاق المهيجة لشهوات شياطين الإنس والجن ؛ فهذا العالم قد اختلط فيه الضر بالنفع ، وأعطى لكلّ ما استعدّ له ؛ فالنفوس الفاضلة ، والنفوس الشريرة ، استمدت من هذه المادة المسخّرة المقهورة ، فصارت سببا لثواب النفوس الطيبة ، وعذاب النفوس الخبيثة ، وصار لهم فيها رجوم وظنون ، إذ هم قد استمدوا شيطنتهم من مظاهر الطبيعة الناشئة من الحرارة والضوء .

ويرى بعض المفسرين أن المراد أن المصابيح التى زيّن الله بها السماء الدنيا لا تزول عن مكانها ولا يرجم بها ، بل ينفصل من الكوكب شهاب يقتل الجنىّ أو يخبله .

قال قتادة : خلق الله النجوم لثلاث : زينة للسماء ، ورجوم للشياطين ، وعلامات يهتدى بها فى البر والبحر ، فمن تكلم فيها بغير ذلك فقد تكلم فيما لا يعلم ، وتعدى وظلم .

(وأعتدنا لهم عذاب السعير) أى وهيأنا لهؤلاء الشياطين فى الآخرة عذاب النار الموقدة كفاء ما اكتسبوا من اللذات ، وانجذبوا إليه من الشهوات ، وغفلوا عن جمال هذه العوالم التى لم يعرفوا منها إلا شهواتهم ، أما عقولهم فقد احتجبت عنها .

والخلاصة — إن السماء قد أضاءت على البر والفاجر ، فالفجار حصروا أنفسهم فى شهواتهم ، فلم ينظروا إليها نظر فكر وعقل ، بل نظروا إليها باعتبار أن بها تقوم

حياتهم ، وهؤلاء أعتدنا لهم عذاب السعير فى الآخرة ، لأن هذا يشا كل حالهم فى الدنيا ، إذ هم فيها قد حبسوا أنفسهم فى نيران البخل والحقد والطمع ، فتحولت إلى نار مبصرة يرون عذابها فى الآخرة .

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا : لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) .

شرح المفردات

ألقوا فيها : أى طرحوا فيها كما يطرح الحطب فى النار ، والشهيق : تنفس كتنفس المتغيظ قاله المبرِّد ، تفور : أى تغلى بهم كغلى المرجل قاله ابن عباس ، وقال الليث : كل شئ جاش فقد فار كفور القدر والماء من العين ، تميز : أى ينفصل بعضها من بعض ، والغيظ : شدة الغضب قاله الراغب ، فوج : أى جماعة ، خزنتها : واحدها خازن ، وهم مالك وأعوانه ، نذير : أى رسول ينذركم بأس الله وشديد عقابه ، إن أنتم : أى ما أنتم ، ضلال كبير : أى ضلال بعيد عن الحق والصواب ، فسحقا لهم : أى فبعدًا لهم من رحمة ربهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن شياطين الإنس والجن قد أعدّ لهم عذاب السعير ، أردف ذلك ببيان أن هذه النار قد أعدها لكل جاحد بوحدانيته ، مكذب برسله ، منكر للبعث واليوم الآخر ، ثم وصف هذه النار بأوصاف تشيب من هولها الولدان ، وتصطك لسماعها الأسنان ، منها :

(١) أنه يسمع لها شهيق حين يلقى الكافرون فيها .

(٢) أنها تفور بهم كما يفور ماء المِرْجل حين يغلى .

(٣) أنها تكون شديدة الغيظ والحَنَق على من فيها .

(٤) أن خزنتها يسألون داخليها : ألم تأتكم الرسل تنبعدكم عن هذا العذاب ؟

(٥) أن أهلها يعترفون بأن الله ماعذبهم ظلما ، بل قد جاءهم الرسل فكذبوهم وقالوا لهم : أنتم فى ضلال بعيد .

(٦) دعاء الملائكة عليهم بالبعد من رحمة الله وألطافه ، وكرمه وإحسانه .

الايضاح

(وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير) أى قد سبق قضاؤنا ، وجرت سنتنا أن من أشرك بنا ، وكذب رسلنا ، فقد استحق عذاب جهنم ، وبئس المآل والمنقلب .

ثم ذكر فظائع أحوال هذه النار فقال :

(إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور) أى إذا طرح المجرمون فيها سمعوا لها صياحا وصوتا كصوت المتغيظ من شدة الغضب ، وهى تغلى بهم كغلى المِرْجَل بما فيه :

(تكاد تميز من الغيظ) يقال فلان يتميز غيظا ، ويتعصف غيظا وغضبا

فطارت منه شعلة فى الأرض وشعلة فى السماء ، إذا وصفوه بالإفراط فى الغضب ، من قِبَل أن الغضب إنما يحدث حين غليان دم القلب ، والدم حين الغليان يأخذ حجما أكبر من حجمه ، فتتمدد الأوعية الدموية فى البدن ، وكلما كان الغضب أشد كان تمددها أكثر حتى تكاد تتقطع وينفصل بعضها من بعض .

ثم بين سبحانه عدله فى خلقه وأنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة وإرسال الرسول إليه فقال :

(كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ؟) أى كلما طرح فى جهنم جماعة من الكفار سألهم مالك وأعوانه من الزبانية سؤال تقريع وتوبيخ : هل أتتكم رسل من ربكم تنذركم شديد بأسه ، وعظيم عقابه لمن عصاه وخالف أمره .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً » .

حينئذ يجيبهم هؤلاء مع التحسر على مافات والندم على ما كان .

(قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شئ إن أنتم إلا فى ضلال كبير) أى بلى جاءنا الرسول وأنذرنا فكذبناه وقلنا له : إن الله لم يوح إليك بشئ ولم يبعثك رسولا ، وما أنت إلا بشر مثلنا ، فما أنت فيما تدّعى إلا مجانف للحق ، بعيد عن جادّة الصدق .

ونحو الآية قوله تعالى : « حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ؟ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ » .

ثم عادوا على أنفسهم باللائمة ، وندموا حيث لا ينفع الندم فقالوا :

(وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) أى وقالوا : لو كانت لنا عقول ننتفع بها ، أو آذان تسمع ما أنزل الله من الحق ، ما كنا على ما نحن عليه من الكفر بالله ، والاغترار باللذات التى كنا منهمكين بها فى دنيانا ، فبؤنا بسخط ربنا وغضبه ، وحلّ بنا عقابه الأليم .

وقد نفوا عن أنفسهم السماع والعقل ، تنزيلا لما عندهم منهما منزلة العدم ، حين لم ينتفعوا بهما .

وقُصارى ماسلف — إنهم قالوا : لو كنا سمعنا كلام النذير وقبلناه ، اعتماداً على مالاح من صدقه ، وفكرنا فيه تفكير المستبصر ، وعملنا به ما كنا فى زمرة المعذّبين .

ولكن هيهات هيهات ، فلا يجدى الاعتراف بالذنب ، ولا يفيد الندم ، فقد فات أوانه ، وسبق ماحُمَّ به القضاء .

صاح هل رَيْتَ أو سمعت براع ردّ فى الضَّرْع ماقرى فى الحِلاب

ومن ثم أحل بهم سبحانه نقمته فقال :

(فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير) أى فاعترفوا بما كان منهم من تكذيب الرسل ، وأنّى يفيدهم ذلك ؟ فبعداً لهم من رحمتى ، جحدوا أو اعترفوا ، فهو ليس بمغنٍ عنهم شيئا ، فقد وقعت الواقعة ، وحل بهم من بأسى ما ليس له من دافع .

روى أحمد عن أبى البحترى الطائى قال : أخبرنى من سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لن يهلك الناس حتى يُعذِروا من أنفسهم » ، وجاء فى حديث آخر : « لايدخل أحد النار إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة » .

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً ، فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) .

شرح المفردات

بالغيب : أى غائبين عن أعين الناس ، بذات الصدور : أى بما فى النفوس ، واللطيف : هو العالم بالأشياء التى يخفى علمها على العالمين ، ومن ثم يقال : إن لطف الله بعباده عجيب ، ويراد به دقائق تدبيره لهم ، الخبير : أى بظواهر الأشياء وبواطنها ، ذلولاً : أى سهلة منقادة يسهل عليكم السير فيها والانتفاع بها وفيما فيها ، والمناكب : واحدها منكِب ، وهو مجتمع مابين العضد والكتف ، والمراد طرقها وفجاجها ، النشور : أى المرجع بعد البعث .

المعنى الجملى

بعد أن أوعد الكفار بما أوعد ، وبالغ فى ترهيبهم بما بالغ — وعد المؤمنين بالمغفرة والأجر الكريم ، ثم عاد إلى تهديد الكافرين بأنه عليم بما يصدر منهم فى السر والعلن ، وأقام الدليل على ذلك بأنه هو الخالق ، فلا يخفى عليه شىء من أمرهم ، بل يصل علمه إلى ظواهر أمورهم وبواطنها ، ثم عدد نعماءه عليهم ، فذكر أنه عبّد لهم الأرض وذللها لهم ، وهيأ لهم فيها منافع من زروع وثمار ومعادن ، فليتمتعوا بما أوتوا ثم إلى ربهم مرجعهم ، وإليه بعثهم ونشورهم .

الإيضاح

(إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير) أى إن الذين يخافون مقام ربهم فيما بينهم وبينه إذا كانوا غائبين عن أعين الناس ، فيكفون أنفسهم عن المعاصى ، ويقومون بطاعته حيث لايراهم إلا هو ، مراقبين له فى السر والعلن ، واضعين نُصْب أعينهم ماجاء فى الحديث : «اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» يكفر عنهم ما ألمّوا به من الذنوب والآثام ، ويجزيهم جزيل

الثواب ، و يدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كفاء ما أسلفوا فى الأيام الخالية .

وقد ورد فى الحديث : « سبعة يظلهم الله فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله — وذكر منهم : ورجلا دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله ، ورجلا تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ماتنفق يمينه » .

ثم نبه إلى أنه مطلع على السرائر فقال :

(وأسرّوا قولكم أواجهروا به إنه عليم بذات الصدور) أى إن عملكم وقولكم على أىّ سبيل وجد فالله عليم به ، فدوموا أيها الخاشعون على خشيتكم ، وأنيبوا أيها المقترون إلى ربكم ، وكونوا على حذر من أمركم .

روى عن ابن عباس أنه قال : « كان المشركون ينالون من النبى صلى الله عليه وسلم فيوحَى إليه بما قالوا ؛ فقال بعضهم لبعض : أسروا قولكم كيلا يسمع ربُّ محمد فنزلت الآية » .

وقدم السر على الجهر للايذان بافتضاح أمرهم ووقوع ما يحذرون على كل حال أسروا أو جهروا ، ولأن مرتبة السر مقدمة على مرتبة الجهر ؛ فما من شئ يجهر به إلا وهو أومبادئه مضمر فى النفس .

وقوله « إنه عليم بذات الصدور » كالعلة والسبب لما قبله .

والخلاصة — إنه تعالى محيط بمضمرات النفوس وأسرارها الخفية المستكنة فى الصدور ، فكيف لايعلم ماتسرون وما تجهرون به ؟ .

ثم نصب الأدلة على إحاطة علمه بجميع الأشياء فقال :

(ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) أى كيف لايعلم السر والجهر من أوجد بحكمته ، وواسع علمه ، وعظيم قدرته ، جميع الأشياء ؛ وهو النافذ علمه إلى ما ظهر منها وما بطن .

وكأنه سبحانه يقول : ألا يعلم سركم وجهركم ، من يعلم الدقائق والخفايا ، جملَها وتفاصيلها ؟ .

ثم نبه إلى نعمه على عباده فقال :

(هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) أى إن ربكم هو الذى سخر لكم الأرض وذللها لكم ، فجعلها قارّة ساكنة ، لا تميد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال ، وأوجد فيها من العيون ، لسقيكم وسقى أنعامكم وزروعكم وثماركم ، وسلك فيها السبل ، فسافروا حيث شئتم من أقطارها ، وترددوا فى أرجائها ، لأنواع المكاسب والتجارات ، وكلوا مما أوجده لكم فيها بفضله من واسع الأرزاق — والسعى فى الأرزاق لاينافى التوكل على الله . روى أحمد عن عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً ، وتروح بطانا » فأثبت لها غدوًّا ورواحا لطلب الرزق مع توكلها على الله عز وجل وهو المسخِّر الميسر المسبّب .

وأخرج الحكيم الترمذى عن معاوية بن قُرّة قال : « مرّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه بقوم فقال : من أنتم ؟ فقالوا : المتوكلون ، قال : بل أنتم المتأكلون ، إنما المتوكل رجل ألقى حبه فى بطن الأرض وتوكل على الله عز وجل » .

وجاء فى الأثر : « إن الله يحب العبد المؤمن المحترف » .

وفى الآية إيماء إلى ندب التجارة والتكسب بجميع ضروبه ، وفيها تهديد للكافرين كأنه قال لهم : إنى عالم بسركم وجهركم ، فاحترسوا من عقابى ، فهذه الأرض التى تمشون فى مناكبها ، أنا الذى ذللتها لكم ، وجعلتها سببا لنفعكم ، وإن شئت خسفتها بكم ، وأنزلت عليها ألوانا من المحن والبلاء .

(وإليه النشور) أى وإليه المرجع يوم القيامة ، فينبغى أن تعلموا أن مكثكم فى الأرض ، وأكلكم مما رزقكم الله فيها ، مكث من يعلم أن مرجعه إلى الله ، ويستيقن أن مصيره إليه ، فاحذروا الكفر والمعاصى فى السر والعلن .

أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) .

شرح المفردات

الأمن : ضد الخوف ، من فى السماء : هو ربكم الأعلى ، وخسف الله به الأرض غيّبه فيها ، ومنه قوله : « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ » وتمور : أى تهتز وتضطرب حاصباً : أى ريحا شديدة فيها حصباء تهلككم ، نذير : أى إنذارى وتخويفى ، نكير : أى إنكارى عليهم بإنزال العذاب بهم ، صافّات : أى باسطات أجنحتهن فى الجوّ حين طيرانها تارة ، ويقبضن : أى ويضممنها تارة أخرى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما أعده للكافرين من نار تلظى ، ووصف هذه النار بما تشيب من هوله الولدان — أردف ذلك بترهيبهم وتخويفهم بأنهم لايأمنون أن يحل بهم فى الدنيا مثل ماحل بالمكذبين بالرسل من قبلهم : من خسف عاجل تمور به الأرض مورا ، أو ريح حاصب تهلك الحرث والنسل ، ولا تبقى منهم ديّارا ولا نافخ نار ؛ ثم ضرب لهم المثل بما حل بالأمم قبلهم من ضروب المحن والبلاء ، فقد أهلكت ثمود بصاعقة لم تبق ولم تذر ، وأهلكت عاد بالريح الصرصر العاتية التى سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما — متتابعة — وأهلك فرعون وقومه بالغرق فى بحر القلزم (البحر الأحمر) ثم لفت أنظارهم إلى باهر قدرته ، وعظيم منّته على عباده ، فطلب منهم

أن يروا الطير وهى تبسط أجنحتها فى الجو تارة ، وتضمها أخرى بتسخير الله وتعليمه ماهى فى حاجة إليه .

الإيضاح

(ءأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور) أى ءأمنتم أن يخسف ربكم بكم الأرض كما خسفها بقارون ، فإذا هى تتحرك بكم حين الخسف ، وتبتلعكم وتمور فوقكم جيئة وذهابا .

ثم انتقل من الوعيد بهذا إلى الوعيد بوجه آخر فقال :

(أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير) أى بل ءأمنتم أن يرسل عليكم ريحا فيها حصباء (حجارة صغار) كما فعل بقوم لوط ، وحينئذ تعلمون كيف يكون عقابى إذا شاهدتموه ، ولكن لاينفعكم العلم حينئذ .

والخلاصة — كيف تأمنون من فى السماء أن يصب عليكم العذاب من فوقكم أومن تحت أرجلكم ، وقد ذلل لكم الأرض ، وزين لكم السماء بمصابيح ، فإذا لم تشكروا النعم ، فأنتم حريّون بأن يرسل عليكم النقم .

ونحو الآية قوله تعالى : « قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ » وقوله : « أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً » .

ثم لفت أنظارهم إلى ماحل بالأمم قبلهم ، لعله يكون فيه مزدجر لهم فقال :

(ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير) أى ولقد كذب من قبلهم من الأمم السالفة والقرون الغابرة من أرسلناهم من رسلنا فحاق بهم من سوء العذاب ما لامردّ له ، وحل بهم من البأس مالم يجدوا له دافعا على شدة هوله وعظيم فظاعته .

والخلاصة — إن الكفار قبلهم شاهدوا أمثال هذه العقوبات بسبب كفرهم ،

وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، ثم ذكر الدلائل على قدرته على إيصال أنواع العذاب بهم فقال :

(أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن مايمسكهن إلا الرحمن) أى أغفلوا عن قدرتنا ولم ينظروا إلى الطير فوقهم وهى باسطات أجنحتهن فى الجو حين طيرانها تارة ، وقابضات لها أخرى ، وما يمسكهن فى الجو حين الصف والقبض على خلاف مقتضى طبيعة الأجسام الثقيلة من النزول إلى الأرض والانجذاب إليها إلا واسع رحمة من برأهن على أشكال وخصائص هو العليم بها ، وألهمهن حركات تساعد على الجرى فى الهواء المسافات البعيدة لتحصيل أقواتهن ، والبحث عن أرزاقهن ؟ .

ثم بين علة هذا فقال :

(إنه بكل شئ بصير) أى إنه سبحانه عليم بدقيق الأشياء وجليلها ، فيعلم كيف يبدع خلقها على السنن التى هو عليم بفائدتها لعباده .

والخلاصة — إنكم رأيتم بعض العجائب التى أبرزناها ، والحكم التى أظهرناها فهل أنتم آمنون أن تدبر بحكمتنا عذابا نصبّه عليكم صبّا ، ولا معقّب لحكمنا ، ولا دافع لقضائنا .

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧) .

شرح المفردات

جند : أى عون ، ينصركم : أى يساعدكم فيدفع العذاب عنكم ، من دون الرحمن : أى من غيره ، فى غرور : أى فى خداع من الشيطان الذى يغركم بأن لاعذاب ولا حساب ، أمسك رزقه : أى بإمساك المطر وغيره من الأسباب التى ينشأ منها الرزق ، لجوا : أى تمادَوْا ، فى عتوّ : أى تكبر وعناد عن قبول الحق ، ونفور : أى إعراض وتباعد منه ، مكبًا على وجهه : أى واقعا عليه ، سويا : أى معتدلا منتصبا ، والأفئدة : العقول واحدها فؤاد ، ذرأكم : أى خلقكم ، الوعد : أى الحشر الموعود ، إنما العلم : أى العلم بوقته ، زلفة : أى مزدلفا قريبا ، سيئت وجوه الذين كفروا : أى تبين فيها السوء والقبح إذ علتها الكآبة والقترة ، ويقال : ساء الشئ يسوء إذا قبح ، تدّعون : أى تطلبونه وتستعجلونه استهزاء و إنكارا .

المعنى الجملى

بعد أن أبان للمشركين عجائب قدرته فيما يشاهدونه من أحوال الطير ، ووبخهم على ترك التأمل فيها — أردفه بتوبيخهم على عبادتهم غيره تعالى يبتغون منه نصرا ورزقا ، منكرا عليهم ما اعتقدوه ، مبينا لهم أنهم لايصلون إلى ما أمّلوه ، و إلا فليبينوا هذا الناصر والمعين والرازق إذا هو أمسك رزقه .

أمّا وقد وضح الحق لذى عينين فهم فى لجاج وعناد بعد وضوح الحجة وتبين المحجة ، ثم ضرب مثلا يبين حالى المشرك والموحّد ، فمثّل حال الأول بحال من يمشى

منحنيا إلى الأمام على وجهه ، فلا يدرى أين يسلك ، ولا كيف يذهب ، فيكون حائرا ضالا ، ومثل حال الثانى بحال من يمشى منتصب القامة على الطريق الواضح ، فيرى ما أمامه ويهتدى إلى ما يريد .

ثم أعقب هذا بذكر الدلائل على تفرده بالألوهية بذكر خلق الإنسان فى الأرض وإعطائه نعمة السمع والبصر ، وأرشد إلى أن القليل من الناس شكور لهذه النعم .

ثم أردف هذا بذكر سؤال المشركين للرسول عن ميقات البعث استهزاء به ، وإجابته إياهم بأن علمه عند الله وليس له من علمه شئ ، وإنما هو نذير مبين ، وذكر أنه حين تقوم القيامة ويعرف المشركون قرب وقوع ما كانوا ينكرون تعلو وجوههم غَبَرَةٌ ، ترهقها قَتَرَة ، ويقال لهم : إن ما كنتم تستعجلون قد وقع ولا مردّ له ، فماذا أنتم فاعلون ؟ .

الإيضاح

(أم من هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ؟ إن الكافرون إلا فى غرور) أى بل من هذا الذى يعينكم فى دفع العذاب عنكم إذا أراد بكم سوءا ؟ فما أنتم فى زعمكم أنكم محفوظون من النوائب بحفظ آلهتكم لا بحفظ الله لكم إلا فى ضلال مبين ، وقد أغواكم الشيطان ، وغركم بهذه الأمانى الباطلة .

وفى قوله : (من دون الرحمن) إشارة إلى أنه برحمته أبقى الناس فى الأرض مع ظلمهم وجهالتهم ، إذ رحمته وسعت كل شىء ، فوسعت البرّ والفاجر ، والطير فى السماء ، والأنعام فى الأرض .

ثم انتقل من توبيخهم على دعوى ناصر سواه إلى توبيخهم على دعوى رازق غيره فقال :

(أم من هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه ؟) أى بل من ذا الذى يرزقكم إن

منع ربكم عنكم أسباب رزقه من الأمطار وغيرها ، أو وقف الهواء فلم تجر الرياح ، أو جعل ماء البحر غورا ؟

والخلاصة — إنه لاجند لكم ينصركم إن هو عذبكم ، ولا رازق يرزقكم إن هو حرمكم أرزاقكم .

وبعد أن حصحص الحق قال مبينا عتوهم وطغيانهم :

(بل لجوا فى عتوّ ونفور) أى إنهم يعلمون ذلك حق العلم ويعبدون غيره ، فما هذا منهم إلا عناد واستكبار ونفور عن قبول الحق ، وما جرأهم على هذا إلا الشيطان الذى غرهم بوسوسته ، فظنوا أن آلهتهم تنفعهم وتدفع الضر عنهم وتقرّبهم إلى ربهم زلفى .

ثم ضرب مثلا يبين به الفارق بين حالى المشرك والموحد ، جعل فيه المعقول بصورة المحسوس ، ليكون أبين للحجة ، وأوضح لطريق المحجة فقال :

(أفمن يمشى مكبّا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم ؟) أى أفمن يمشى وهو يتعثر فى كل ساعة ، ويخر على وجهه فى كل خطوة ، لتوعر طريقه ، واختلاف أجزائها انخفاضا وارتفاعا ـ أهدى سبيلا وأرشد إلى المقصد الذى قؤمه ، أم من يمشى سالما من التخبط والعثار على الطريق السوىّ الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف ؟ ـ فهذا المكب على وجهه هو المشرك الذى يمشى على وجهه فى النار يوم القيامة ، والذى يمشى سويا هو الموحد الذى يحشر على قدميه إلى الجنة .

وبعد أن امتنّ على عباده بما آتاهم من زينة السماء ، وتذليل الأرض ، وإمساك الطير فى الهواء ـ أخذ يذكر ما هو أقرب إلينا وهو خلق أنفسنا فقال آمرا رسوله أن يبين لهم ذلك :

(قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) أى قل لهم : إن ربكم هو الذى برأكم وجعل لكم السمع لتسمعوا به المواعظ ، والأبصار لتنظروا

بها بدائع صنع الخالق ، والأفئدة لتتفكروا فى كل هذا ، وتستفيدوا منه الفوائد العقلية والمادية .

ثم أبان أن الإنسان لنعمة ربه لكنود فقال :

(قليلا ما تشكرون) أى قلما تستعملون هذه القوى التى أنعم بها ربكم عليكم فى طاعته ، وامتثال أوامره ، وترك زواجره ، وذلك هو شكرانها .

ثم لخص هذا كله بقوله آمرا رسوله :

(قل هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون) أى قل لهم منبها إلى خطئهم : إن ربكم هو الذى برأكم فى الأرض وبثكم فى أرجائها على اختلاف ألسنتكم وألوانكم ، وأشكالكم وصوركم ، ثم يجمعكم كما فرقكم ، ويعيدكم كما بدأكم للحساب والجزاء ، فيجزى كل نفس بما كسبت ، إنه سريع الحساب .

وبعد أن ذكر أن إليه المرجع والمآب ـ أردفه بذكر مقالة الكافرين المنكرين لذلك فقال :

(ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) أى ويسألون الرسول استهزاء وتهكما : متى يقع ما تعدنا به من الخسف والخاصب فى الدنيا ، والحشر والعذاب فى الآخرة إن كنت صادقا فيما تدعى وتقول ؟

فأمر رسوله أن يجيبهم بأن علم ذلك عند بارئ النسم فقال :

(قل إنما العلم عند الله) أى إنما علم ذلك على وجه التعيين عند ربى لا يعلمه إلا هو ، وقد أمرنى أن أخبركم بأن ذلك كائن لا محالة فاحذروه .

ونحو الآية قوله : « إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى » .

ثم بين وظيفة الرسول فقال :

(وإنما أنا نذير مبين) أى وإنما أنا منذر من عند ربى أبين لكم شرائعه ، ما حلل منها وما حرم ، لتكونوا على بينة من أمركم ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم .

ثم بين حالهم حين نزول ذلك الوعد الموعود فقال :

(فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذى كنتم به تدعون) أى فلما رأوا العذاب الموعود قريبا « وكل آت قريب وإن طال زمنه » ساءهم ذلك وعلت وجوههم الكآبة والخسران ، وغشيتها القترة والسواد ، إذ جاءهم من أمر الله مالم يكونوا يحتسبون ، ويقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ : هذا الذى كنتم تستعجلون وقوعه وتقولون لرسوله : « ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » .

ونحو الآية قوله : « وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَالَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ . وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا ، فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ؟ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ؟ (٣٠) .

شرح المفردات

أرأيتم : أى أخبرونى ، غورا : أى غائرا فى الأرض لاتناله الدلاء ، معين : أى جار سهل المأخذ تصل إليه الأيدى .

المعنى الجملى

روى أن كفار مكة كانوا يدعون على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين بالهلاك كما حكى الله عنهم فى آية أخرى بقوله : « أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ » وقوله : « بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى

أَهْلِيهِمْ أَبَدًا » فنزلت الآية ، ثم أمره أن يقول لهم : إن هلاكى أو رحمتى لاتجيركم من عذاب الله ، ثم أمره أن يقول لهم : إنا آمنا بربنا وتوكلنا عليه ، وستعلمون غدا من الهالك ؟ ثم أمره أن يقول لهم : إن غار ماؤكم فى الأرض ولم تصل إليه الدلاء ، فمن يأتيكم بماء عذب زلال تشربونه ؟

الإيضاح

أجاب سبحانه عن تمنى المشركين موته صلى الله عليه وسلم ومن معه بوجهين :

(ا) (قل أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم) أى قل لهم موبخا : أخبرونى عن فائدة موتى لكم : سواء أماتنى الله ومن معى ، أو أخر أجلنا ؛ فأى راحة لكم فى ذلك ، وأى منفعة لكم فيه ، ومن ذا الذى يجيركم من عذاب الله إذا نزل بكم ، أتظنون أن الأصنام أو غيرها تجيركم ؛ وهلا تمسكتم بما يخلصكم من العذاب ، فتقروا بالتوحيد والنبوة والبعث ؟.

وخلاصة هذا — إنه لامجير لكم من عذاب الله بسبب كفركم الموجب لهذا العذاب — سواء هلكنا كما تتمنون فنزنا برحمة الله ، أو انتصرنا عليكم ورفعنا شأن الإسلام كما نرجو ، فكلا الأمرين فيه ظفر بما ينبغى ، ونيل لما نحب ونهوى .

وفى هذا إيماء إلى أمرين :

(١) حثهم على طلب الخلاص بالإيمان الخالص لله والإخبات إليه .

(٢) إنه كان ينبغى أن يكون ما هم فيه شاغلا لهم عن تمنى هلاك النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين .

(ب) (قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا) أى قل لهم : آمنا برب العالمين الرحمن الرحيم ، وعليه توكلنا فى جميع أمورنا كما قال : « فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ » وهو سيجيرنا من عذاب الآخرة .

وفى هذا تعريض بهم حيث اتكلوا على أولادهم وأموالهم « وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ

أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ » وإشارة إلى أنهم لايرحمون فى الدارين ، لأنهم كفروا بالله وتوكلوا على غيره .

ثم ذكر ما هو كالنتيجة لما قبله فقال :

(فستعلمون من هو فى ضلال مبين) أى فسيستبين لكم مَن الضالُّ منا ومن المهتدى . ولمن تكون العاقبة فى الدنيا والآخرة ؟.

ولما ذكر أنه يجب التوكل عليه لاعلى غيره أقام الدليل على ذلك فقال آمرا رسوله أن يقول لهم .

(قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين) أى قل لهم : أخبرونى إن ذهب ماؤكم فى الأرض ولم تصل إليه الدلاء ، فمن يأتيكم بماء جار تشربونه عذبا زلالا . ولا جواب لكم إلا أن تقولوا هو الله ، وإذاً فلم تجعلون ما لايقدر على شىء شريكا فى العبادة لمن هو قادر على كل شىء .

وفى هذا طلب إقرار منهم ببعض نعمه ، ليريهم قبح ما هم عليه من الكفر .

وقصارى ذلك — إنه تعالى فضلا منه وكرما أنبع لكم المياه وأجراها فى سائر الأقطار بحسب حاجتكم إليها قلة وكثرة ، فله الحمد والمنة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم .

ما حوته السورة من موضوعات

(١) وصف السموات .

(٢) بيان أن نظام العالم لاعوج فيه ولا اختلاف .

(٣) وصف عذاب الكافرين فى الدنيا والآخرة .

(٤) التذكير بخلق الإنسان ورزقه وأشباه ذلك .